سمو الفقر

فى المصلح الاجتماعى الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

— ٢ —

قالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلئ جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قطّ ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .

وقالت : ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعنها : كنا آلَ محمد نمكث شهراً مانستوقد بنار ، إن هو إلا التمر والماء .

وقالت : ما رَفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قَط غداءً لعشاء ، ولا عشاء لغداء ، ولااتخذ من شىء زوجين ، لاقميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

وروى عنها ، قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى .

وقالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالىَ المتتابعة وأهلَه طاوياً لا يجدون عشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله ما أمسى فى آل محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعة أبيات » والله ما قالها استقلالاً لذكر الله ، ولكن أراد أن تتأسّى به أمته .

وعن ابن بجير ، قال : أصاب النبىّ صلى الله عليه وسلم جوعٌ يوماً فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « ألا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا — جائعةٌ عارية يوم القيامة ؛ ألا ربَّ مُكرِم نفسه وهو مهين لها ؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها »

وخُيّرَ صلى الله عليه وسلم أن يكون له مثل « أُحد » ذهباً فقال : لا يارب ، أجوع يوماً فأدعوك ، وأشبع يوماً فأحمدك .

وكان يقول فى دعائه ويكثر منه : اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين .

***

هذا هو سيد الأمة ، يمسكه فى الحياة نبياً عظيماً ما يُخرج غيره منها ذليلاً محتقراً ، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فردّه أشعة نور ، على حين يُلقى الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبقى تراباً ، بل يرجع ظلاماً ، فكأنهم يطئون المجهول بخوفه وروعته ؛ ثم لا يستقر ظلاماً ، بل يرجع آلاماً ، فكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة ؛ ثم لا يثبت آلاما ، بل يتحول فورة وتوثباً تكون منه نزوات الحمق والجنون فى النفس . هؤلاء الذين تعيش أنفسهم فى التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه — ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دُوداً لايقع فى شىء إلا أفسده أو قذّره ؛ أو قوماً سوساً لاينال شيئاً إلا نخره أو عابه ، فهم يوقعون الخلل فى نظام أنفسهم فاذا هى طائشة تخيّل لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا ، وكأن الله قبضهم وبسط غيرهم وشَغَلهم وفرّغ مَن عداهم ، وابتلاهم على مُسْكَة الرزق بالشهوة المسعورة التى لاتتحقق ، فضربهم بالمجاهدة التى لاتنقطع ؛ وأنعم على غيرهم فى بسطة الرزق بالشجرة المسحورة التى لا تُقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضر ، وأنه لم يجعل نفسه فى همّ المال ، ولا جعلته نفسه فى هم الفقر ، وأنه لقى الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقر فيها هادئاً لا مضطربا — كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وبُعث وعاش ليكون درساً عملياً فى حل المشكلات الاجتماعية ، يعلّم الناس أنها لا تتعقد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ؛ ولا تستمر بقوتها ، ولكن بامداد قواهم لها ؛ ولا تغلب بصولتها ، ولكن بجزَعهم منها ؛ ولا تُعضل من ذات نفسها ، ولكن من سوء أثرهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .

فإذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتقللاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تترجمها نفسك أو تحسبها ضرورتك؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم، ثم اقرأها شريعةً اجتماعية مُفصَّلة على طبيعة النفس، قائمةً على أن تأخذ نفس الانسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية، لتعطى الحياة من ذلك قوة عناصرها. والحياة العاملة غير الحياة الوادعة، هما ذكر وأنثى؛ فأما الأولى فهى ماوصفنا وحكينا، وأما الثانية فهى تَغلُّل النعمة، وإطلاق قانون التناسل فى المال ينمى بعضُه بعضا، وينبت بعضه على بعض، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوِّماتها، وقيام الزينة على الخداع وطبائعه، فيُقْبل المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفه عنها، ويحب منها ما كان ينبغى أن يباغضه فيها. وكل ما رأيت وعلمت فى رجل قُوِّته القوة فهو هناك؛ وكل ماعلمت ورأيت فى أنثى قوتها الضعف فهو هنا.

فالسواد الذى تراه فى فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحىّ؛ سواد الليل حول الروح النَّجْميَّة الساطعة؛ وذلك التراب هو التراب الحىّ؛ تراب الزرع تحت النضرة والخضرة؛ وتلك الحاجة الجسميّة هى الحاجة الحية الدافعة الى حرية النفس؛ وذلك الاقلال من فهم اللذة هو الاقلال الحىّ الذى يزيد قوة فهم الجمال فى السماء والأرض وما بينهما؛ وذلك الضيق فى حيز المتاع للحاسة هو الضيق الحى الذى يوسع حيّز المتاع للروح. وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة، وذلك الاحتقار للعرَض الفانى الزائل هو المعنى الآخر لتقديس الخالد الباقى.

فليس هناك خبز الشعير، ولا الجوع، ولا رهن الدرع عند اليهودى. كلا، كلا، بل هناك حقيقة نفسية عقلية، ثابتة متزنة، قائمة بعناصرها السامية: من اليقين والعقل والحكمة، الى الرفق والحلم والتواضع، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبى العظيم هو الرجل الاجتماعى التام بأخلاقه وفضائله، وهو الذى بُعِث لتنقيح غريزة تنازع البقاء، وكسر هذه الحيوانية، وقمع نزواتها، وإماتة دواعيها، والسمو بخواطرها فهو بنفسه صورة الكمال الذى بعث لتحقيقه، وإثبات أنه الممكن لا الممتنع، والحقيق لا الخيالى.

ليس هناك درع مرهونة فى ثلاثين صاعا، ولا الفقر، ولا خبز الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقرير أن النصر فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء والمتاع، ولكن من المعاناة والشدة والصبر، وأن التقدم الانسانى لا يباع بيعاً، ولا يؤخذ هوناً، بل هو انتزاع من الحوداث بالاخلاق التى تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها، وأن هذا المال وهذه الشهوات — فى حقائق الحياة ومصائرها — ككنوز الأحلام لا تكون كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغفلة والنوم، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة. وليس إلا الأحمق أو المخذول أو الضائع هو الذى يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز، وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئاً «ووجد الله عنده فوفاه حسابه»

كلا، كلا، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما، بل هناك وضع هذه الحقيقة: ينبغى أن تجد نفسك، وموضع نفسك، وإيمان نفسك، وعزة نفسك، فاذا أدركت ذلك ورفعت نفسك الى موضعها الحق، وأقررتها فيه وحبستها عليه، وحددتها بالانسانية من ناحية، وبالله من الناحية المقابلة — رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة فى أن تكون وسيلة تعطى وتعمل لتعطى، لاغاية تأخذ وتعمل لتأخذ — ومهما ضيق عليك، فانما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع حلاوة. وما قط نبتت شجرة فى مكانها التأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب، وتحصنها وتمنعها عن غيرها، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم، فيكون طمعها سريعاً فى إفساد الصلة بينها، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد فى القانون نظامها، فيهلكها الذى كان يحييها، وتستعبد لحظ نفسها فيفقدها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها.

***

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل.» فهذا هو أسمى قانون اجتماعى يمكن أن تظفر به الانسانية

ومايأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعانى التى أومأنا إليهاشعوراً اجتماعياً عاماً ، مقرراً فى النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحب القمح فى السنبلة ليس لجميعه إلا قانون واحد ، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها ، علت أو سفلت ، وكثر ماتأخذه أو قل ، وإذا كان أساس الحياة فى الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها ، وأن يستمر النور من حولها يغمرها .

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنْزَع وما بها أنها نُزِعت ، ولكنها أدت ما تؤدّى ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره ، وما اغتنت ولا افتقرت ، ولا أكثرت ولا أخفَّتْ ؛ بل حققت موضعها ، فانها ما نبتت لتبقى ، وما نمت إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمن الصحيح الايمان ، الصادق النظر فى الحياة ؛ هو أبداً فى قانون آخرته ؛ فهو أبداً فى عمل ضميره .

والناس فى هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء ؛ فاذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفْضُون إلى هذه النهاية مرّوا آمنين وكان فى يقينهم السلامة ، وفى صبرهم الوقاية ، وفى نظامهم التوفيق ، وفى تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، مادام هذا قانون جميعهم ، فأيما رجل شذّ منهم فاضطرب فطاش هلك وأهلك من حوله ، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه أهلك من حوله وهلك . والموت أشق الموت هنا — اعتبارُ الحاضر بنفسه ، والضجرُ منه ، وجعل الانسان نفسه غاية ؛ والحياة أهنأ الحياة ـ اعتباره بما وراءه ، والصبر على شدته ، وجعل الانسان نفسه وسيلة .

***

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودى من سيد الخلق وأكملهم ، ومن لوشاء لمشى على أرض من الذهب . فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الانسانية أن الرجل العظيم النفس لايكون فى الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلُّل من خلق الأثَرَة ، والبراءةِ من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسْرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الايقاظ النفسى للأمة العزيزة التى تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ، لتكون فى كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للانسانية .

على أنه صلى الله عليه وسلم حثّ على طلب اليسار ، والتغلُّل من الأعمال الشريفة بالغلّة والمال ، فقال : « إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال صلى الله عليه وسلم : من يعوله ؟ قالوا كلنا نعوله . فقال : كلكم خير منه ! . . إلى أحاديث كثيرة مرويّة ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عمل الحىّ . ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدح لعيشه ، ويجوع يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يده فى تِلاد من المال يرثه ولم يجمعها على طريف منه يورّثه ـ فذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالأمر نافذاً لارخصة فيه على ألاّ يتخذ الغنى من الفقير عبداً اجتماعياً ، لفقر هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواة النفسية لا غيرها ، وإن اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله ، بمعنى التقوى ؛ والأقوم بالواجب ، على معنى الواجب ؛ والأكفأ للانسانية ، فى معانى الانسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة فى طبيعة التملك ، لقيام التعاون الانسانى على أساسه العملىّ ؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية يمنع أن تأكل مصلحةٌ مصلحةً فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبى الفقير العظيم هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى كالقاضى الجالس وراء موادّ القانون . صلى الله عليه وسلم .

مصطفى صادق الرافعى